

أبحاث

دور الجواري في الحياة العامة في العصر العباسي الأول

الأستاذ الدكتور / الباحثة

محمد عبد الله حسين اللصبي / دبا طلال زهير

Received: 5 / 10 / 2025

Revised: 10 / 10 / 2025

Accepted: 15 / 10 / 2025

Published: 1 / 11 / 2025



Ibn Rushd

أ.م. د محمد عبد الله حسين اللهيبي

d.r.moh.mak@uomosul.edu.iq

صبا طلال زهيري

Saba.23bep32@student.uomosul.edu.iq

جامعة الموصل/ كلية التربية الأساسية/ قسم التاريخ

دور الجواري في الحياة العامة في العصر العباسي الأول The role of concubines in public life in the early Abbasid era

ملخص

لا يمكن قراءة التاريخ الإسلامي، ولا سيما العصر العباسي، بمعزل عن الأدوار غير المرئية التي أدتها بعض الشخصيات النسوية في مسار السلطة. فالمرأة في المجتمع الإسلامي المبكر لم تكن دائماً في موقع التابع أو المحجوب، بل تُظهر المصادر التاريخية شواهد متعددة على نساءٍ كان لهن حضور فاعل في الحياة السياسية والاجتماعية، سواء بصورة مباشرة من خلال نفوذهن في دوائر الحكم، أو بصورة غير مباشرة عبر تأثيرهن في صناع القرار.

ومن هذا المنطلق، تبرز فئة الجواري في العصر العباسي الأول بوصفها نموذجاً دالاً على هذا الحضور النسوي غير التقليدي. فدراسة هذه الفئة تكشف أن الجواري لم يكن مجرد أدوات للترف أو الزينة في قصور الخلافة، بل كنّ جزءاً من البنية الاجتماعية والسياسية والثقافية للدولة العباسية. إذ أسهم بعضهم في توجيه السياسات أو التأثير في الثقافة الأدبية والفنية، مما يجعل تناولهن ضرورة لفهم طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل القصر العباسي وآليات تفاعل الطبقات المختلفة مع قوى السلطة والثقافة والاقتصاد، وبناءً على ذلك، فإن تحليل حضور الجواري في المجتمع العباسي لا يقتصر على البعد

الاجتماعي أو الأخلاقي، بل يُعدّ مدخلًا لفهم أعمق لبنية الدولة العباسية وآليات اشتغالها الداخلية، وهو ما يكشف عن جوانب خفية في التاريخ السياسي والثقافي لذلك العصر. الكلمات المفتاحية: دور، الجواري، الحياة، العامة، العصر العباسي.

Abstract

The history of Islam particularly the Abbasid era cannot be understood apart from the unseen roles played by certain female figures in the sphere of power. Women in early Islamic society were not always confined to subordinate or secluded positions; historical sources reveal numerous instances of women who held influential roles in political and social life either directly through their presence in ruling circles, or indirectly through their influence over decision-makers.

From this perspective, the class of jawari (concubines) in the early Abbasid period emerges as a significant example of this unconventional female presence. A study of this group reveals that the jawārī were not merely instruments of luxury or ornamentation in the caliphal palaces, but rather an integral part of the Abbasid state's social, political, and cultural structure. Some of them contributed to shaping policies or influencing literary and artistic culture, making their study essential for understanding the nature of social relations within the Abbasid court and the ways in which

different social strata interacted with power, culture, and the economy.

Accordingly, analyzing the presence of the jawari in Abbasid society goes beyond the social or moral dimension; it serves as an entry point for a deeper understanding of the Abbasid state's internal mechanisms and structure shedding light on the hidden aspects of its political and cultural history.

Keywords: Role, Concubines, Public Life, Abbasid Era.

مقدمة

شهد العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢ هـ / ٧٥٠-٨٤٧ م) مرحلة ذهبية من مراحل التاريخ الإسلامي، حيث بلغ فيها المسلمون ذروة من التوسع السياسي الذي تجلّى في اتساع رقعة الدولة العباسية لتشمل أقاليم واسعة من آسيا وأفريقيا وأجزاء من أوروبا، فضلاً عن ازدهار حركة الفتوحات واستقرار الحكم المركزي في بغداد، عاصمة الخلافة^١، وقد أسهم هذا التوسع في توفير قاعدة اقتصادية متينة، قائمة على الضرائب والخراج والتجارة الدولية، وهو ما أوجد حالة من الثراء الاقتصادي انعكست على مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية^٢، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل شهدت هذه الحقبة أيضاً نهضة فكرية كبرى تمثلت في حركة الترجمة، وازدهار الفلسفة والعلوم، ونشوء طبقة من العلماء والمفكرين الذين أثروا الحياة الفكرية والفنية^٣.

وفي ظل هذه البيئة الزاهرة، برزت فئة الجواري كأحد العناصر الاجتماعية والثقافية والسياسية التي أدت دوراً بارزاً في تشكيل ملامح المجتمع العباسي، فالجواري لم يكن مجرد عنصر تابع أو ثانوي في المجتمع، بل أصبح عنصراً فاعلاً في الحياة العامة، سواء في قصور الخلفاء أو في بيوت الوزراء والأثرياء، وقد ارتبط حضورهن في البداية بالخدمة المنزلية التقليدية، إلا أنهم سرعان ما تجاوزوا هذه الأدوار ليصبحوا

جزءاً من الحركة الفنية والثقافية من خلال الغناء والموسيقى، فضلاً عن الإسهام في مجال الأدب

وهذا ما يجعل دراسة الجوّاري في العصر العباسي الأول ضرورةً لفهم ديناميكيات السلطة والمجتمع والثقافة في ذلك العصر، إذ إنهن لم يكنّ مجرد ظاهرة اجتماعية عابرة، بل شكّلن مؤسسة قائمة بذاتها كان لها أبعاد متعددة.

المبحث الأول: مصادر الجوّاري

تعددت المصادر التي وفدت منها الجوّاري في العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ / ٧٥٠-٨٤٧م)، حيث مثّلن ظاهرة اجتماعية واقتصادية وثقافية لها أثر بارز في الحياة العباسية، ويمكن تقسيم هذه المصادر إلى ثلاثة رئيسة، هي: الفتوحات، والتجارة الدولية، ثم الولادة داخل بيوت السادة^٥، وفيما يلي تفصيل لهذه المصادر:

أولاً: حركة الفتوحات:

كانت حركة الفتوحات الإسلامية منذ عهد الخلافة الراشدة وحتى العصر العباسي أحد أبرز مصادر الجوّاري، إذ ترتب على الحروب العسكرية أسر عدد كبير من النساء من مختلف الأقاليم التي دخلت تحت الحكم الإسلامي، وكان هؤلاء النساء يُعرضن في أسواق النخاسة^٦ ببغداد والبصرة والكوفة، وهي الأسواق الرئيسية في ذلك الوقت^٧.

إن أسر النساء في الحروب كان يُعد جزءاً من النظام العسكري والاجتماعي، حيث يتم اقتسام الغنائم بين الجيش والدولة، وتُعد الجوّاري جزءاً من تلك الغنائم. ومن ثم، فإن الفتوحات لم تكن مجرد توسع سياسي أو اقتصادي فحسب، بل كانت أيضاً مصدراً لتدفق الجوّاري من مناطق شاسعة كبلاد ما وراء النهر، والأناضول، والشام، ومصر^٨.

وقد ساهم هذا التدفق في تنوع ثقافي واجتماعي داخل المجتمع العباسي، إذ حملت الجواري معهن عادات ولهجات وأدياناً مختلفة قبل دخولهن الإسلام، وأفرز هذا التنوع حالة من التثاقف^٩ انعكست على الحياة الفنية والثقافية، لاسيما في مجالات الموسيقى والغناء والأدب^{١٠}، ومن الجدير بالذكر أن بعض الجواري الأسيرات كن يُعلَّمن في بيوت السادة، ما أتاح لهن لاحقاً تأدية أدوار أوسع من مجرد الخدمة المنزلية.

كما أن وجود هذه الأسواق في مدن رئيسة كالكوفا والبصرة وبغداد جعل منها نقاطاً لتلاقي الثقافات واللغات، حيث كان يُباع ويُشترى فيها الجواري القادمات من بلاد الروم والترك والفرس والهند، ما زاد من مكانة هذه الأقاليم كمراكز للحياة الاقتصادية والاجتماعية^{١١}، وهذا ما سنوضحه في ثانياً.

ثانياً: التجارة الدولية:

أدت التجارة الدولية دوراً محورياً في جلب الجواري إلى الدولة العباسية، فقد كان التجار ينتقلون بين الأقاليم المختلفة حاملين معهم أنواعاً متعددة من البضائع، وكانت الجواري يُعتبرن من السلع الأكثر طلباً في أسواق العباسيين، ويمكن تقسيم أهم مناطق استخدام الجواري عبر التجارة إلى الآتي:

١. بلاد الروم والقوقاز:

كانت بلاد الروم (البيزنطيون) والقوقاز من أبرز مصادر الجواري، حيث اشتهرت الجواري الروميات والتركيات بجمالهن البارز^{١٢}، وقد وصفت بعض المصادر التاريخية الجواري الروميات بأنهن كن يتميزن بالبشرة البيضاء والملامح الدقيقة، وهو ما جعلهن مطلوبات بشكل خاص لدى الخلفاء والأمراء. أما الجواري التركيات فقد عُرفن بقوتهن البدنية وملامحهن الفاتنة، إلى جانب براعة بعضهن في الفروسية والغناء^{١٣}.

٢. بلاد ما وراء النهر:

منطقة ما وراء النهر، ولاسيما أراضي الترك والصغد - منطقة تاريخية في آسيا-، كانت مصدراً غنياً للجوّاري في العصر العباسي، وقد اشتهرت الجوّاري التركيات بمهارتهن العسكرية أحياناً، إذ كان بعضهن يُدرّبن على الفروسية والموسيقى في آن واحد، مما جعلهن مميزات في قصور الخلفاء^{١٤}

٣. الهند والسند:

أما الهند والسند، فقد كانتا مصدراً آخر مهماً، إذ تميزت الجوّاري القادمات من هناك بمهارتهن في الرقص والغناء، حيث أدخلن أنماطاً جديدة من الفنون الموسيقية والرقصات الشرقية إلى البلاط العباسي^{١٥}، ويروى أن بعض الجوّاري الهنديات كان لهن دور في تطوير الأداء الفني داخل القصور، حتى إن مجالس الغناء لم تكن تخلو منهن في أحيان كثيرة.

إن تعدد هذه المصادر عبر التجارة لم يعكس مجرد حركة اقتصادية، بل ساهم في إثراء المجتمع العباسي بالتنوع الثقافي والفني، مما جعل القصور العباسية أشبه بمراكز حضارية عالمية مصغّرة، تضم نساءً من أصول ولغات وثقافات مختلفة.

ثالثاً: الولادة داخل بيوت السادة:

لم يكن مصدر الجوّاري مقتصرًا على الفتوحات أو التجارة، بل نشأت فئة من الجوّاري عبر الولادة داخل بيوت السادة أنفسهم. إذ كانت الجوّاري يُنجبن أطفالاً من أسيادهن، وهؤلاء الأطفال يُعدّون "أحراراً" بحكم الشرع الإسلامي^{١٦}.

لقد منح هذا الوضع بعض الجوّاري مكانة خاصة، إذ أن إنجابهن لأولاد من السادة قد يرفع من شأنهن الاجتماعي ويمنحهن نوعاً من الحرية، بل وقد يُطلق عليهن صفة "أم الولد"، وهي صفة تمنحهن حقوقاً شرعية مميزة، منها أنهن لا يُباعن بعد إنجاب الولد^{١٧}.

إن وجود أبناء للجوّاري داخل البيوت العباسية جعل منهم جزءاً من البنية الأسرية والاجتماعية، فلم يعد حضورهم مقتصرًا على الخدمة أو الترفيه، بل أصبح أمهات لأجيال جديدة اختلط فيها الدم العربي الإسلامي مع أعراق متعددة، وهذا ما يعكس الطابع العالمي للمجتمع العباسي وحضارته.

كما أن المكانة التي اكتسبتها الجوّاري عبر الولادة أفرزت لهن سلطة معنوية داخل بيوت الأسياد، فأخذت الجارية أم الولد تؤثر في القرارات الأسرية، وأحياناً في علاقات السادة مع محيطهم السياسي والاجتماعي، وهذا يعكس دور الجوّاري بوصفهن جزءاً من حركة المجتمع لا مجرد عناصر هامشية.

لقد كانت الجوّاري في العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ / ٧٥٠-٨٤٧م) جزءاً لا يتجزأ من البنية الاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمع، ولم يكن حضورهم مقتصرًا على الخدمة أو الترفيه، بل تعدى ذلك إلى أدوار واسعة، عكست تنوع مكانتهن واختلاف أوضاعهن تبعاً لموقعهن ووظائفهن، ويمكن القول إن الجوّاري شكّلن طبقة اجتماعية فريدة في المجتمع العباسي، لها خصوصياتها وأدوارها المؤثرة.

المبحث الثاني: دور الجوّاري

أولاً: الجوّاري والخدمة المنزلية:

لقد كانت الخدمة المنزلية من أبرز الوظائف التي مارستها الجوّاري، حيث عملن في إعداد الطعام، وتنظيم شؤون البيت، وتربية الأطفال، والاهتمام باحتياجات سيدات القصور أو منازلهن^{١٨}، ومع ذلك، فإن هذه الوظيفة لم تكن بالضرورة تعني وضعاً اجتماعياً متدنياً، إذ إن بعض الجوّاري استطعن عبر الذكاء أو الجمال أو المهارة أن ينتقلن من مجرد خادמות إلى صاحبات نفوذ.

إن الخدمة المنزلية، وإن بدت وظيفة عادية، إلا أنها منحت الجوّاري فرصة للاحتكاك المباشر بأسيادهم، وهو ما أتاح لعدد منهم الارتقاء في المكانة الاجتماعية،

فالجارية التي كانت تحسن القراءة أو الكتابة، أو تتقن الغناء والعزف، كان من الممكن أن تُميز على غيرها وتُدخل إلى مجالس الأدب أو الفن، وهكذا، أصبحت الخدمة المنزلية بوابةً للتّرفي الاجتماعي في كثير من الأحيان^{١٩}.

ثانياً: تفاوت المكانة بين الجوّاري:

اختلفت أوضاع الجوّاري اختلافاً كبيراً باختلاف موقعهن الاجتماعي، فجارية الخليفة لم تكن كجارية التاجر أو الحرفي العادي^{٢٠}، فالجوّاري اللواتي وُجدن في قصور الخلفاء والوزراء والأمراء تمتعن بمكانة خاصة، حيث كنّ يشاركن في الحياة الثقافية والفنية، ويُسهمن في صناعة مجالس الطرب والأنس التي اشتهرت بها بغداد وسامراء. أما جوّاري التجار والأثرياء، فقد كنّ في الغالب محصورات في خدمة البيوت وإدارة شؤونها، وعلى الرغم من ذلك فإن بعضهن كان لهن نصيب في التّعلم والفنون، إذا كان سيدهن يولي اهتماماً بالثقافة أو الموسيقى، هذا التفاوت يعكس طبيعة النظام الطبقي العباسي، حيث كان للانتماء إلى بيت الخلافة أو بيت الوزير دور أساسي في تحديد مكانة الجارية ومصيرها^{٢١}.

ثالثاً: الجوّاري في قصور الخلفاء

لقد كان وجود الجوّاري في قصور الخلفاء العباسيين أكثر من مجرد حضور شكلي، إذ شكّل جزءاً من جهاز البلاط الملكي، فقد تميزن بمهارات متنوعة: من الغناء والعزف، إلى المعرفة بالأدب والشعر، وحتى الإسهام في النقاشات الفكرية أحياناً. كما أن بعضهن كان لهن دور في توجيه الخلفاء أو التأثير في قراراتهم، خاصة إذا كنّ أمهات للأمراء^{٢٢}.

وقد ارتبطت بعض الجوّاري بالخلفاء أنفسهم أو بأبنائهم ارتباطاً وثيقاً، بحيث أصبحن أمهات لخلفاء لاحقين. ومن أبرز الأمثلة على ذلك:

١. الخيزران

موضوع الدراسة وهي جارية يمنية الأصل، أصبحت زوجة الخليفة المهدي وأماً للخليفين الهادي وهارون الرشيد^{٢٣}، وقد تجاوز نفوذها حدود الأسرة إلى المشاركة في شؤون الدولة نفسها. فقد رُوي أنها كانت تتدخل في تعيين الوزراء وعزلهم، وأن كلمتها كانت نافذة في قصر الخلافة. ويُعد نفوذها السياسي والاجتماعي دليلاً على المكانة المتميزة التي قد تصل إليها الجارية في البلاط العباسي.

٢. بوران بنت الحسن بن سهل:

بوران^{٢٤} لم تكن جارية بالمعنى التقليدي، بل كانت زوجة الخليفة المأمون، لكنها تمثل نموذجاً للنساء اللواتي كنّ يشاركن الجواري في التأثير الثقافي والاجتماعي داخل القصور. فقد كانت مثقفة وذات حضور قوي في الحياة الأدبية والفكرية، وتروي المصادر أن حفل زفافها بالمأمون كان من أضخم الأعراس في التاريخ الإسلامي، حيث أنفق فيه ما لم يُنفق في زفاف غيره^{٢٥}.

إن ذكر بوران في سياق الجواري يعكس التداخل بين أدوار الجواري والحرائر في المجتمع العباسي، حيث كان لكلتيهما حضور مؤثر، وإن اختلفت الخلفيات الاجتماعية والقانونية.

رابعاً: الجواري أمهات الخلفاء:

إن إنجاب الجواري من الخلفاء والأمراء كان أحد أهم أسباب ارتفاع مكانتهن، حيث يكتسبن صفة "أم الولد"، التي ترفع من شأنهن وتجعل لهن حقوقاً مميزة، ومن أبرز النتائج أن بعض الجواري أصبحن أمهات لخلفاء لاحقين، مثل الخيزران أم هارون الرشيد.

هذا الواقع منح الجواري دوراً مزدوجاً: من جهة هنّ أمهات، ومن جهة أخريات هنّ عنصر سياسي واجتماعي فاعل، إذ أن تربية الخلفاء على أيديهن جعلتهن شركاء

غير مباشرين في صناعة القرار السياسي، فقد أثرت بعض الجوّاري في تربية أبنائهن حتى صاروا خلفاء ذوي أثر بارز في التاريخ الإسلامي^{٢٦}.

خامساً: النفوذ الثقافي والاجتماعي والسياسي:

لم يكن نفوذ الجوّاري محصوراً في الجانب الأسري، بل امتد إلى المجال الثقافي والاجتماعي، فقد ساهم في إثراء الحركة الأدبية والفنية داخل القصور، إذ عرف عن كثير منهن إتقانهم لفنون الشعر والغناء والموسيقى، كما شاركن في إحياء المجالس الثقافية، حتى إن بعضهن كـ (عريب المأمونية) التي عُرفت بجمالها وفنها في الغناء وكانت من أبرز مغنيات القصور ولامعة في سماء الفن في العصر العباسي^{٢٧}.

هذا النفوذ الثقافي كان له انعكاسات على الحياة العامة، حيث ساهم في تشكيل الذوق الفني للمجتمع، ونشر أنماط جديدة من الغناء والموسيقى، فضلاً عن تحفيز حركة الشعراء الذين كانوا يمدحون أو يصفون الجوّاري في أشعارهم.

لم يكن حضور الجوّاري في العصر العباسي الأول مجرد وجود هامشي داخل القصور، بل امتد تأثيرهن إلى الساحة السياسية، حيث اكتسبن نفوذاً واسعاً من خلال قربهن من الخلفاء أو بصفتهم أمهات لأمرأ وخلفاء لاحقين. فقد شكلت بعض الجوّاري قوة سياسية حقيقية في الدولة العباسية، إذ ساهمن في صناعة القرار السياسي، وأثرن في اختيار الوزراء والولاة، بل وشاركن في بعض الأحيان في دسائس القصر وصراعاته الداخلية^{٢٨}.

١ - الخيزران ونفوذها السياسي:

الخيزران تُعد المثال الأبرز على هذا النفوذ، فقد كانت جارية يمنية الأصل ثم أصبحت زوجة للخليفة المهدي، وأماً للخليفين الهادي وهارون الرشيد. ولم يقتصر دورها على كونها أماً، بل تجاوز ذلك إلى التدخل المباشر في شؤون الدولة. فقد عُرف عنها أنها كانت تستقبل الوزراء وكبار رجال الدولة، وتصدر الأوامر والنواهي باسمها،

حتى صار نفوذها السياسي محل جدل واسع بين المؤرخين. ويُذكر أن الخليفة الهادي حاول الحد من تدخلها في السياسة، لكنه فشل أمام شعبيتها وقوة شخصيتها^{٢٩}.

٢- بوران ومكانتها الثقافية والسياسية:

أما بوران زوجة الخليفة المأمون وابنة الوزير الحسن بن سهل، فقد مثّلت نموذجاً آخر للتأثير السياسي الممزوج بالثقافة. فمجلسها الذي جمع العلماء والأدباء والشعراء لم يكن مجلس لهو فقط، بل كان ملتقى فكرياً له أثر في توجيه الحياة الثقافية والسياسية في زمن المأمون. وقد ارتبط نفوذها بالدور الكبير الذي لعبه والدها في إدارة شؤون الدولة، ما جعلها حلقة وصل بين بيت الخلافة والبيت الوزاري^{٣٠}.

٣- الجواري والدسائس السياسية:

فضلاً عن هذه النماذج البارزة، فإن الجواري الأخريات في قصور الخلفاء كنّ طرفاً في مؤامرات القصر، حيث ارتبطن بمحاولات بعض الأمراء لتولي الحكم، أو شاركن في مؤامرات لإبعاد وزراء وتقريب آخرين، وهذا ما جعل نفوذهن مزدوجاً: إيجابياً من جهة المشاركة في الحياة السياسية، وسلبياً من جهة إشعال الفتن والصراعات الداخلية^{٣١}.

إن هذا النفوذ يعكس الطبيعة المعقدة للقصور العباسية، حيث لم تكن السياسة حكراً على الرجال، بل شاركت فيها النساء والجواري بشكل ملحوظ، وكان لهن دور فاعل في صياغة المشهد السياسي في الدولة العباسية.

سادساً: الجواري والاقتصاد العباسي:

على الصعيد الاقتصادي، لم تكن الجواري مجرد عنصر اجتماعي أو سياسي، بل تحوّلن إلى سلعة ذات قيمة تجارية عالية، فقد كان لهن أسواق خاصة تُسمى أسواق النخاسة، حيث تُعرض الجواري للبيع والشراء وفق معايير متعددة تشمل الجمال، الثقافة، المهارة في الغناء أو الشعر، بل وحتى الأصل العرقي، وقد وصل ثمن بعض الجواري

إلى مبالغ طائلة، لاسيما إذا كُنَّ من الروم أو التركيات اللواتي اشتهرن بالجمال أو الإتقان الفني^{٣٢}.

١- الجوّاري كسلعة اقتصادية:

لقد كان بيع وشراء الجوّاري من أبرز مظاهر النشاط الاقتصادي في بغداد وسامراء والبصرة والكوفة، فالسوق لم يكن مجرد مكان لتبادل الأموال مقابل الجوّاري، بل كان مؤسسة اجتماعية واقتصادية ضخمة لها تنظيمها وموظفوها وشروطها، وكان التجار يجلبون الجوّاري من مناطق متعددة مثل الروم وبلاد ما وراء النهر والهند، لتلبية الطلب المرتفع من قبل الخلفاء والوزراء والأثرياء^{٣٣}.

٢- أثر الجوّاري في الصناعات الترفيهية:

ولم يقتصر أثر الجوّاري على كونهن سلعة تباع وتُشتري، بل كنّ سبباً في ازدهار صناعات أخرى، أبرزها صناعة العطور والملابس الفاخرة والمجوهرات، فقد كانت الجوّاري زبونات أساسيات لتجار هذه السلع، لاسيما في بغداد التي عُرفت بأنها عاصمة الترف والرفاهية في ذلك العصر. كما ساهمت الجوّاري المغنيات في ازدهار صناعة الآلات الموسيقية، إذ كان يُصنع لهن آلات خاصة تُناسب أصواتهن وأذواقهن^{٣٤}.

٣- الاقتصاد المنزلي والقصري:

إلى جانب التجارة العامة، لعبت الجوّاري دوراً في الاقتصاد المنزلي والقصري، حيث كنّ يدرن شؤون القصور الكبرى، ويشرفن على الخدم الآخرين، ويُسهمن في تنظيم الولائم والحفلات، وهي أنشطة كانت تحتاج إلى موارد مالية ضخمة، ما جعل من الجوّاري جزءاً من دورة الاقتصاد العباسي الداخلية^{٣٥}.

وهكذا، يمكن القول إن الجوّاري مثّلن عنصراً اقتصادياً أساسياً في الحياة العباسية، إذ لم يكن المجتمع يستغني عن حضورهن في مجالات الترف والتجارة، بل ساهمن بشكل غير مباشر

في ازدهار صناعات كاملة.

سابعاً: الجوّاري والثقافة والأدب:

إلى جانب النفوذ السياسي والاقتصادي، كانت الجوّاري ركناً أساسياً في النهضة الثقافية والأدبية التي شهدتها العصر العباسي الأول. فقد برزت منهن أسماء لامعة في الشعر والغناء والموسيقى، وأصبح منافسات للأدباء والشعراء الرجال في مجالس الأدب والطرب^{٣٦}.

١. الجوّاري الشاعرات:

لقد ظهرت بين الجوّاري شاعرات بارعات عبّرن عن تجاربهن الخاصة وحياتهن في القصور من خلال شعر وجداني وغزلي، بل وأحياناً نقدي. وكانت أشعارهن تُعكس صورة الحياة الاجتماعية والسياسية داخل القصر، وتُبرز مشاعر الحب والغيرة والحنين. ومن أشهر الشاعرات الجوّاري: عريب المأمونية، التي كانت تجمع بين جمال الصوت وبراعة الشعر، حتى نافست كبار شعراء عصرها^{٣٧}.

٢. المجالس الأدبية والفنية:

ارتبطت الجوّاري بمجالس الأدب التي جمعت بين العلماء والشعراء والموسيقيين. فقد كانت هذه المجالس فضاءً للتلاقح الثقافي، حيث يُلقى الشعر، وتُعزف الموسيقى، وتُدار النقاشات الفكرية، وقد أسهمت الجوّاري في نشر أنماط جديدة من الغناء والموسيقى، كان لها أثر عميق في الذائقة الفنية للمجتمع العباسي^{٣٨}.

٣. ازدهار الشعر الغزلي والوصفي:

كان لحضور الجوّاري أثر بارز في ازدهار الشعر الغزلي والوصفي، إذ ألهمن الشعراء في تصوير الجمال والفتنة والأنوثة، كما أن بعض الجوّاري أنفسهن قدمن نصوصاً غزلية رائعة، مما ساهم في توسيع أفق الشعر العباسي وإثرائه بصوت نسوي

متميز. وقد جعل هذا التنوع من العصر العباسي الأول مرحلة ذهبية في تاريخ الأدب العربي^{٣٩}.

وعلى الرغم من المكانة البارزة التي حظيت بها بعض الجوّاري في العصر العباسي الأول، سواء في قصور الخلفاء أو في بيوت الأمراء والوزراء، فإن غالبية الجوّاري بقين أسيرات واقع الاستعباد والخدمة المنزلية، فقد كان نظام الرق يشكل الإطار القانوني والاجتماعي الذي يحدد وضعهن في المجتمع، حيث وُضعن في طبقة اجتماعية أدنى من الأحرار، على الرغم من اندماجهن في الحياة العامة من خلال العمل والخدمة في البيوت أو من خلال مشاركتهن في الفنون والآداب^{٤٠}.

لقد كان وجود الجوّاري في المجتمع العباسي يعكس صورة مزدوجة: فمن جانب، ظهرت بعض الجوّاري في صورة المرأة المتعلمة، المؤثرة، والمشاركة في الشأن العام، مثل الخيزران وبوران، اللتين ارتبط اسمهما بالسلطة والقرار السياسي، ومن جانب آخر، ظلت جموع كبيرة من الجوّاري محصورة في أدوار الخدمة، بعيداً عن فرص الصعود الاجتماعي. هذا التباين جعل من الجوّاري ظاهرة مركبة: بعضهن ارتقين ليصبحن رموزاً سياسية أو ثقافية، بينما أخريات لم يتجاوزن موقعهن كخادמות أو أدوات للترف^{٤١}.

ومن الناحية الإنسانية، فتح الإسلام أبواب العتق أمام الجوّاري، فكان العتق يشكل نافذة للتحرر من قيود الرق، حيث أقرّ الشارع أن الجوّاري يُعتقن إذا أنجب من أسيادهن، ليصبحن أمهات أحرار لأولاد أحرار، وهو ما عرف بمصطلح "أم الولد". كما كان من الممكن أن يُعتقن عن طريق الوصية أو الشراء، حيث أوصى بعض الأسياد بعتق جواريهن بعد وفاتهم، أو قام آخرون بعتقهن كنوع من الكفارات أو القربات الدينية^{٤٢}.

وقد مثلت أسواق النخاسة مركزاً رئيسياً لوجود الجوّاري، إذ كان يُنظر إليهن كبضائع قابلة للبيع والشراء، تتفاوت قيمتهن وفق معايير الجمال والمهارة في الفنون أو

القدرة على الإنجاب. هذا الوضع خلق أبعاداً اجتماعية معقدة، إذ تراوحت حياة الجارية بين أن تُباع في سوق النخاسة بثمن بخس، أو أن تصل إلى مجلس الخليفة وتصبح صاحبة نفوذ. إن هذا التفاوت كان انعكاساً لطبيعة النظام الطبقي في العصر العباسي، الذي أتاح لبعض الجواري طريقاً للتقدم الاجتماعي، بينما أبقى الغالبية منهم في دائرة التبعية والاستعباد^{٤٣}.

ولم يكن للانعكاسات الاجتماعية على الجواري أثر محدود بهن فقط، بل امتد ليشمل المجتمع العباسي كله، إذ ساهم وجودهن في تكوين صورة عن طبيعة العلاقات الاجتماعية، والحدود الفاصلة بين الحرية والعبودية، وبين النفوذ والتبعية. فقد أدى انتشار الجواري إلى طرح تساؤلات أخلاقية وفقهية حول وضع المرأة المستعبدة، وطرق تحريرها، ودورها في المجتمع، وهو ما دفع الفقهاء إلى معالجة هذه القضايا في كتب الفقه والحديث^{٤٤}.

يتضح مما تقدم أن الجواري في العصر العباسي الأول لم يكن مجرد عنصر ثانوي هامشي، بل كنّ جزءاً لا يتجزأ من البنية الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية للدولة، فقد ارتبط حضورهن بالحياة العامة على أكثر من صعيد، حتى أصبحت بعضهن علامات بارزة في التاريخ العباسي^{٤٥}.

ففي المجال السياسي، مارست بعض الجواري دوراً محورياً في توجيه القرار السياسي داخل القصور، إذ كنّ على مقربة من الخلفاء وأبنائهم، مما جعل تأثيرهن يمتد إلى تعيين الوزراء والولاة، والمشاركة في إدارة شؤون الحكم بصورة غير مباشرة، هذه المكانة جعلت بعض الجواري أشبه بمستشارات للخليفة أو وسيطات في القصر، وأحياناً أدوات لدسائس سياسية شكلت جزءاً من تاريخ الخلافة العباسية^{٤٦}.

أما على المستوى الاقتصادي، فقد شكلت الجواري سلعة ذات قيمة عالية في الأسواق، حيث وصل ثمن بعضهن إلى مبالغ كبيرة تبعاً لصفتهن الجمالية أو الفنية، ولم يقتصر دورهن على البيع والشراء فحسب، بل ساهمن أيضاً في تنشيط صناعات متعددة

مثل الأزياء الفاخرة، والعطور، والمجوهرات، هذا الجانب جعل منهن قوة اقتصادية غير مباشرة، إذ كان الطلب عليهن يحرك السوق ويؤثر في مستويات العرض والطلب، وبذلك أصبح جزءاً من الدورة الاقتصادية للمدينة العباسية^{٤٧}.

وفي الجانب الثقافي والأدبي، كان للجوّاري إسهامات بارزة من خلال مجالس الأدب والغناء، حيث تحولت بعضهن إلى شاعرات ومغنيات بارعات ينافسن كبار الأدباء والشعراء، وقد أسهم حضورهن في إثراء الحركة الأدبية والفنية، إذ ارتبطت قصائدهن بالأجواء الغزلية والوصيفية التي عكست حياة القصور وما يدور فيها من ترف ولهو، وبرزت أسماء مثل عريب المأمونية، التي أصبحت رمزاً لثقافة الغناء والموسيقى في بغداد، ومن خلال هذه المجالس الأدبية، نقلت الجوّاري مزيجاً من الثقافات المتعددة التي جُلبن منها، وهو ما ساعد في انفتاح المجتمع العباسي على آفاق جديدة من الفنون والمعارف^{٤٨}.

وعليه، يمكن القول إن الجوّاري لم يكن مجرد خادمت أو أدوات للمتعة، بل كنّ أحياناً ركيزة أساسية في ترسيخ مكانة الدولة العباسية، حيث أثرن في القرار السياسي، ودفعن عجلة الاقتصاد، وأسهمن في صياغة المشهد الثقافي والفني. وبهذا المعنى، فإنهن شكّلن عنصراً محورياً لا يمكن تجاوزه عند دراسة البنية الاجتماعية والحضارية في العصر العباسي الأول^{٤٩}.

المراجع

- (١) البحث مسئل من رسالة ماجستير.
- (٢) ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت: ٨٠٨هـ/٤٠٦م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، ط٢، (بيروت: د.ت)، ج٣/ص٢١٥.
- (٣) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط٦، (القاهرة: ٢٠٠٥م)، ص٤٤.
- (٤) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار النهضة المصرية، (القاهرة: ١٩٧٩م)، ج٢/ص١٢٨.
- (٥) الولادة داخل بيوت السادة: ولادة الجارية من سيدها، ما يمنحها صفة أم الولد ويحرر ابنها. ينظر: ابن قدامة، موفق الدين أبو محمد عبد الله بن محمد الجماعلي (ت: ٦٢٠هـ/١٢٢٣م)، المغني، تحقيق: عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر، ط٣، (القاهرة: د.ت)، ج٨/ص٢٣٩.
- (٦) أسواق النخاسة: أماكن مخصصة لبيع وشراء الرقيق (العبيد والجواري). ينظر: ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، (بيروت: د.ت)، ج٦/ص٢١٥.
- (٧) الطبري، محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ/٩٢٣م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٣، (القاهرة: د.ت)، ج٧/ص١٢٣.
- (٨) أحمد أمين، ضحى الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة: د.ت)، ج٢/ص٧٠.
- (٩) التثاقف: التفاعل المتبادل بين ثقافتين أو أكثر يؤدي إلى تبادل العادات والأفكار. ينظر: أمين، ضحى الإسلام، ج٢/ص٧٠.

- (١٠) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦/ص ٢١٥.
- (١١) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريذة، دار الكتاب العربي، (القاهرة: د.ت)، ج ١/ص ٨٠.
- (١٢) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥هـ/٨٦٩م)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ط ٤، (القاهرة: د.ت)، ج ١/ص ١٧٨.
- (١٣) ضيف، العصر العباسي الأول، ص ٩١.
- (١٤) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت: ٢٨٤هـ/٨٩٧م)، تاريخ اليعقوبي، تحقيق: عبد الأمير مهنا، دار صادر، (بيروت: ١٩٦٠م)، ج ٢/ص ٣١٢.
- (١٥) أمين، ضحى الإسلام، ج ٢/ص ٧٠.
- (١٦) ابن قدامة، المغني، ج ٨/ص ٢٣٩.
- (١٧) أم الولد: الجارية التي تنجب من سيدها ولداً، فلا يجوز بيعها وتعتق بعد وفاته. ينظر: ابن قدامة، المغني، ج ٨/ص ٢٣٩.
- (١٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦/ص ٢٢٠.
- (١٩) أمين، ضحى الإسلام، ج ٢/ص ٧٥.
- (٢٠) متز، الحضارة الإسلامية ج ١/ص ٩١.
- (٢١) ضيف، العصر العباسي الأول، ص ٩٣.
- (٢٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢/ص ١٣٣.
- (٢٣) ابن خلدون، العبر، ج ٣/ص ٣٤٥.
- (٢٤) بوران: ابنة الحسن بن سهل وزوجة الخليفة المأمون، عُرفت بثافتها ونفوذها الاجتماعي. ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨/ص ٥٢٢.
- (٢٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨/ص ٥٢٢.

- (٢٦) ابن قدامة، المغني، ج ٨/ ص ٢٣٩.
- (٢٧) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م)، الأغاني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت : ١٩٩٤ م).
- (٢٨) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨/ ص ٥٤٠.
- (٢٩) ابن خلدون، العبر، ج ٣/ ص ٣٤٧.
- (٣٠) المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، ط ٢، (بيروت : ١٩٨٩ م)، ج ٤/ ص ١١٢.
- (٣١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦/ ص ٢٣١.
- (٣٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ٤/ ص ٢٥.
- (٣٣) أمين، ضحى الإسلام، ج ٢/ ص ٨٤.
- (٣٤) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١/ ص ١٢١.
- (٣٥) ضيف، العصر العباسي الأول، ص ١٠١.
- (٣٦) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢/ ص ١٤٠.
- (٣٧) الأصفهاني، الأغاني، ج ٥/ ص ٣٣.
- (٣٨) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت: ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، ط ٢، (القاهرة : ٢٠٠٢ م)، ج ١/ ص ٢٧٦.
- (٣٩) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، (القاهرة : ١٩٤٧ م)، ج ١/ ص ٩٥.
- (٤٠) ابن خلدون، العبر، ج ١/ ص ٢٧٦.
- (٤١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣/ ص ١٤٢.

- (٤٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢/ ص ٦.
- (٤٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨/ ص ٨٨.
- (٤٤) ابن قدامة، المغني، ج ١٠/ ص ٢٣٩.
- (٤٥) ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، (القاهرة : ١٩٩٧م)، ج ١٠/ ص ١١٢.
- (٤٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦/ ص ٣٤.
- (٤٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢/ ص ٤٧٨.
- (٤٨) الأصفهاني، الأغاني، ج ٤/ ص ٢١٥.
- (٤٩) السيوطي، جلال الدين (ت: ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، (القاهرة : ١٩٦٤م)، ص ٣٢١.